البلـور الصخـري

أشار بعض الرحالـة والمؤرخون إلـى ازدهار صناعة البلـور الصخري بمصر خلال العصر الفاطمي، ومنـهم الرحالـة الفارسـي "ناصر خسرو"، الذي زار مصر فيمـا بين سنتي (439- 441هـ/ 1046- 1050م)، وأبدى إعجابـه الشديد بما عاين فيها من بلور صخري في سوق القناديل، وذكر أن البلـور كان يُجلب من بلاد المغرب قبل زيارتـه إلـى مصر بزمن قليل، حتى تم الكشف في إقليم البحر الأحمـر عن بلـور يمتـاز بنقاوتـه، وكـان أجمـل مـن البلـور المغربـي وأكثـر منـه شفافية.

ومن ناحية أخرى، فقد كتب "الغزولي" (ت815هـ/ 1412م) في مؤلفه "مطالع البدور فـي منـازل السرور" عن كنـوز البلـور الصـخري التـي كانـت فـي قصـور الفاطميين.

كما أشار "المقريزي" (ت845هـ/) عند تناوله لما أُخرج من القصور الفاطمية في أثناء الشدة المستنصرية إلى ما كان في هذه القصور من تحف بلورية كثيرة متنوعة الأشكال.

وقد أثبتت الدراسات الآثارية أن صناعة البلور الصخري في مصر –التي كانت مزدهرة في مصر منذ عصري الطولونيين والإخشيديين- بلغت أوج ازدهارها في بداية عصر الفاطميين ولاسيما في عهد الخليفة "العزيز بالله" (365-386هـ)، حين صنعت أنواع مختلفة من التحف امتازت زخارفها بالرشاقة والتأنق والوضوح والبروز الشديد والقطع الظاهر، وبعد ذلك أخذت تلك الصناعة في التدهور تدريجياً فصارت الزخارف تقل دقتها، ويقل بروزها، حتى كادت لا تظهر من الأرضية.

وكان من الطبيعي أن تستمر أساليب سامراء التي شاعت في زخرفة البلور الصخري بمصر في العصرين الطولوني والإخشيدي، متبعة في زخرفة البلور

الصخري بمصر في أوائل العصر الفاطمي، حيث تكشف بعض النماذج التي وصلتنا من مصر وترجع إلى منتصف القرن الرابع الهجري/ 10م، أنها احتوت على الوحدات الزخرفية نفسها التي استعملت من قبل في سامراء، ثم في مصر الطولونية، بالإضافة إلى أنها نفذت بأسلوب القطع المائل أو الحفر المشطوف.

إن ما وصلنا من تحف البلور الصخري الفاطمي يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن فن صناعة البلور الصخري كان مزدهرًا ازدهارًا عظيمًا في مصر خلال العصر الفاطمي. وقد تميزت هذه التحف بتنوع في أشكالها، فمنها أباريق وصحون وقنينات وقوارير وكئوس، وأوعية على هيئة أسماك، ومكاحل، ومسارج ومحابر وأختام، ومنها كذلك قطع شطرنج، وتماثيل لأسود وأرانب وغير ذلك.

ومما لا شك فيه أن أفضل ما وصلنا من هذه التحف مجموعة من الأباريق، ترجع إلى مصر فيما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين/ 10-11م، وهي تتميز ببدن كمثري الشكل، ذي قاعدة مستديرة منخفضة، ويفصل البدن عن الفوهة رقبة قصيرة، ولهذه الأباريق مقابض تتصل بالرقبة، وتهبط باستقامة حتى تتصل بأسفل البدن، ومن نماذجها:

* إبريق (لوحة 1) محفوظ في كنوز كاتدرائة "سان مارك" بمدينة "البندقية"، يُزين بدنه نقش قوامه فهدان متماثلان متقابلان بينهما زخرفة نباتية محورة أو شجرة الحياة، ويوجد أعلى البدن نص كتابي بخط كوفي، يتضمن عبارة دعائية نصها: "بركة من الإمام العزيز بالله". ويُلحظ أنه يعلو مقبض الإبريق تمثال حيوان على هيئة كبش له قرن طويل يمتد إلى الخلف حتى ظهر الحيوان، وقد وصفه بعض مؤرخي الفنون الإسلامية بأنه يمثل خروفاً، ووصفه البعض الآخر أنه يمثل غزالاً، كما قال بعضهم إن هذا الحيوان يعود إلى العهود القديمة في فنون الشرق الأوسط وأواسط آسيا.

إلا أنه يلاحظ أن هيئة هذا الحيوان بقرنه الممتد إلى الخلف، يكاد يكون مطابقاً لأشكال المَعيز الجبلية التي وجدت محفورة على بعض الأخشاب الفاطمية

التي ترجع إلى القرن الخامس الهجري/ 11م، ويعتقد بعض العلماء أنه نوع من الماعز الجبلي الذي لم يكن موجوداً في البيئة المصرية، وأنه انتقل إلى الفن الفاطمي عن طريق الفن الإيراني أو العراقي.

* إبريق (لوحة 2) محفوظ بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن، على بدنه زخرفة قوامها مجموعتان من نقوش تُمثل صقرًا ينقض على غزال ليفترسه، وبين هذه النقوش فرع نباتي كبير تنتهي حلزوناته بمراوح نخيلية وأنصافها (لوحة 92).

* إبريق محفوظ بمتحف اللوفر بباريس، يُزين بدنه نقش قوامه ببغاوان بينهما رسم لشجرة الحياة.

* إبريق محفوظ بقصر بتي بفلورنسا، يُزين بدنه نقش قوامه بجعتان بينهما شجرة الحياة، وأعلى البدن شريط كتابي بخط كوفي يتضمن عبارة دعائية.

* إبريق (لوحة 3) محفوظ بمتحف الأرميتاج بلينينجراد، عليه نقش قوامه أربعة أسود، كل اثنين منها متواجهان.

* إبريق محفوظ بمتحف الآثار الإسلامية بمدريد، تضمن في أعلاه نقش كتابي بخط كوفي، نصه: "بركة من الله"، يليه شريط عريض يتضمن نقش قوامه طائران متقابلان بينهما زخرفة نباتية، تُعبر عن شجرة الحياة.

* إبريق محفوظ في فينا، له بدن بيضاوي مستطال، ورقبة أسطوانية، ويُزين البدن نقش قوامه طائران متقابلان ناشران جناحيهما، على أرضية من الزخارف النباتية والهندسية البارزة، ويُلحظ أن مقبض الإبريق مفقود، وأنه أُضيف إليه في وقت لاحق مقبض وفوهة من الفضة.

* إبريق محفوظ بمتحف "تاريخ الفنون" بفينا، ينسب إلى القرن الخامس أو السادس للهجرة/ 11-12م، ويمتاز بدن هذا الإبريق بأنه كمثرى الشكل وذو هيئة مفصصة، وربما يعيد هذا الشكل المفصص إلى أذهاننا هيئة بعض الأباريق الخزفية الفاطمية المحزوزة تحت الطلاء؛ والتي امتازت ببدنها الكمثرى الذي تشغله حشوات رأسية تعطيها هيئة مفصصة، ومن المعتقد أن هذا الشكل متأثر

بهيئة بعض الأواني الخزفية التي استوردت من الصين في عهد أسرة "Liao" (916-1125م).

وأهم ما يلفت نظرنا في معظم الأباريق السابقة، شيوع رسوم الكائنات الحية فيها، تلك الظاهرة التي لمسناها في معظم أنواع الفنون الفاطمية، وتؤكد تلك الرسوم أو النقوش المنفذة على هذه الأباريق الفاطمية أن تلك الظاهرة بدأت مع أوائل حكم الفاطميين لمصر، إذ إن أحد هذه الأباريق يحمل اسم الخليفة الفاطمي "العزيز بالله" (365-368هـ).

وقد سبقت الإشارة إلى أن ثمة اعتقادًا يربط بين هذه الظاهرة في مصر خلال العصر الفاطمي بالفن العباسي في العراق، وثمة اعتقاد آخر يربطها بفنون شمال أفريقيا. وربما كان في استعمال الفاطميين المبكر بمصر لهذه الرسوم- كما هو واضح في إبريق "العزيز بالله"- قرينة على اتصال ظاهرة شيوع رسوم الكائنات الحية في مصر خلال العصر الفاطمي بفنون شمال أفريقيا. ومما تجدر ملاحظته أن النقوش المنفذة على تلك الأباريق الفاطمية، سواء كانت أسوداً أو ببغاوات أو مناظر انقضاض، كانت شائعة في فنون شمال أفريقيا الموطن الأصلي للفاطميين.

ومن غير المستبعد أن تسهم فنون شمال أفريقيا بدور غير مباشر في نقل بعض التأثيرات الفنية الوافدة إلى مصر في العصر الفاطمي، فنلاحظ على سبيل المثال أنه إن جاز اعتبار منظر انقضاض الصقر على الغزال في الإبريق المحفوظ بمتحف "فكتوريا وألبرت" (لوحة 92) والذي تميز بالبعد عن تصوير الواقع، -حيث بدت السكينة والهدوء على كل من الغزال والصقر- يعد من بين الموروثات الاخمينية إذ ظهرت هذه الروح نفسها في مناظر الافتراس في الفن الاخميني، واستمرت في مناظر الانقضاض في الفنون الإيرانية الإسلامية، فإن

هذا الموضوع نفسه –الذي ظهر على الإبريق الفاطمي– نجده منفذاً في بعض فنون شمال أفريقيا، وقد اتسم أيضاً بروح الدعة والاستسلام نفسها، التي ظهرت في الموضوع الفاطمي.

ومما لاشك فيه أنه إن جاز اعتبار كثير من نقوش هذه الأباريق – كالحيوانين أو الطائرين المتقابلين اللذين تفصل بينهما شجرة الحياة، وكذلك الطائر الجارح الذي ينقض على غزال– ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالفن الساساني، وأن أسلوب رسم الزخارف النباتية في بعض الأباريق يعود إلى الفن الإيراني القديم، فيجب ألا ينسينا هذا أن مثل تلك الزخارف كانت شائعة التمثيل في الفنون الإيرانية المعاصرة للفاطميين.

وأيًا كان الأمر، فبالإضافة إلى الأباريق السابقة، والتحف الأخرى المنوه إليه من قبل والتي تتمثل في مجموعة من الصحون والقنينات والقوارير وقطع الشطرنج والتماثيل والمحابر والأختام، والتي احتوت على زخارف نباتية، كما تضمن بعضها عبارات كتابة بخط كوفي، فيهمنا التأكيد بوجه خاص على التحف التالية:

* مكحلة (لوحة 4) محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، تُنسب إلى القرن الرابع الهجري/ 10م، وهي ذات بدن أُسطواني، يتوسطها عبارة دعائية بخط كوفي، تقرأ: "بركة لصاحبتها".

* قارورة محفوظة بمجموعة "كير"، تنسب إلى منتصف القرن الرابع الهجري/ 10م، وهي ذات شكل مسطح من الجانبين، وتحتوى على كتابة بخط كوفي مزهر في كل جانب منهما، يقرأ في أحد جانبيها كلمة "بركة" وفي الجانب الآخر كلمة "غبطة"، ويُلحظ أن حرف "التاء" في كلمة "غبطة" جاء على هذا النحو [ ].

* قارورة أخرى محفوظة في"Landesmuseum, Brunswick" تحتوي على نص كتابي بخط مشابه للقارورة السابقة يقرأ "بركة لصاحبه والعز"، ويُلحظ أن حرف "الكاف" في كلمة "بركة" في هذه القارورة جاء على هذا النحو [ ].

جدير بالذكر أن "Pinder- Wilson" ذكر أن شكل تضفير حرفي "التاء"، و"الكاف" –على هيئة مستطيلين– في هاتين التحفتين، يُعد ميزة في الكتابة في خراسان خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين /10–11م، حيث ظهرت على العملة السامانية والبويهية والغزنوية والسلجوقية، وفي الكتابة الكوفية على بعض الأواني الخزفية في نيسابور وسمرقند، وأشار إلى أن تلك الميزة لم تتبن في مصر قبل العصر الفاطمي، وأن ظهورها في هذا العصر تدل على تطور مبدع في الزخرفة بالخط الكوفي.

* شمعدان محفوظ بمتحف المترو بوليتان بنيويورك، يتألف من عمود، وقاعدة ذات ثلاث أرجل مشكلة على هيئة حيوانات رابضة، وهى تذكرنا بأشكال أرجل الكلج الفاطمية التي كانت إما على هيئة حيوانات رابضة، أو على هيئة أرجل الحيوانات.

* مسرجة (شكل 1، لوحة 5) محفوظة بمتحف الأرميتاج بلينجراد، وهي ذات شكل فريد، حيث صُممت على هيئة قارب، له مقبض مستقيم، وقد تضمنت هذه المسرجة زخارف نباتية، قوامها أوراق أكانتس حلزونية الشكل، كما أنها احتوت على شريط زخرفي على هيئة حبيبات اللؤلؤ.

جدير بالذكر أن بعض العلماء نسبوا هذه المسرجة إلى مصر في أواخر القرن الرابع الهجري/10م، في حين نسبها آخرون إلى العراق– وإلى البصرة تحديدًا– في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/9م، وذلك بِناءً على احتوائها على أوراق الأكانتس الحلزونية الشكل والتي كانت شائعة التمثيل في

سامراء، كما أنها احتوت على شريط من حبيبات اللؤلؤ والمعتقد بعدم ظهوره على تحف البلور الصخري الذي ينسب إلى مصر.

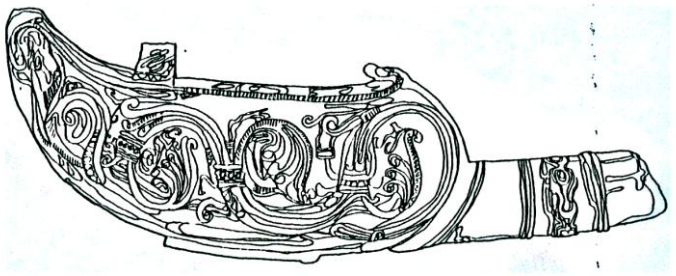

(شكل 1)

وننهي حديثنا عن التحف المصنوعة من البلور الصخري بالإشارة إلى عدة تماثيل مصنوعة من هذه المادة، منها على سبيل المثال:

* تمثال على هيئة أسد رابض، ينسب إلى مصر في القرن الرابع الهجري/ 10م، وقد أشار بعض العلماء إلى أن مثل هذا الأسد الرابض استخدم كحارس ملكي في العراق خلال العهدين السومري والبابلي، وأنه استخدم أيضاً في بلاد الهند حيث كان يرمز به إلى "بوذا"، كما وصلنا كذلك في الفن الإخميني ببلاد فارس وهو يصارع الملك رامزاً إلى انتصار الخير على الشر، وأنه صور في الفن الساساني في أغلب الأحيان كفريسة صيد ملكية، وأنه وصلنا أيضاً من الفن القبطي أمثلة عديدة لأسود واقفة نقشت على الحجر ترجع إلى القرن السادس الميلادي، وأن هذا يوضح أن أشكال الأسود كانت شائعة التمثيل في مصر.

* وعاء على هيئة سمكة، وهو محفوظ بمجموعة "كير"، ويرجع إلى مصر في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ 10م، وقد ذَكر أحد العلماء –في صدد تناوله لهذه التحفة– أن السمكة تتصل بالمسيحيين في مصر وغيرهم من العالم المسيحي، حيث كانت لديهم ذات رمز ديني خاص.

* تمثال لأرنب، محفوظ بمجموعة "كير" أيضاً، يرجع إلى مصر في القرن الخامس الهجري/ 11م، وقد ذَكر أحد العلماء –في صدد حديثه عن هذه التحفة– أن الأرنب من العناصر الزخرفية التي استخدمت منذ القدم، وأنه وجد منفذاً على النسيج القبطي، ومن المحتمل أن لتمثيل الأرنب في الفنون القديمة صلة بالإيمان بالحياة الأخرى، وأنه استمر استخدامه لدى المسلمين، حتى إن كان معناه الدقيق القديم قد تلاشى، وأنه ربما استخدم لديهم كتعويذة، أو تميمية.

وما نود التأكيد عليه بعد عرضنا للتحف السابقة، والآراء التي قيلت عنها، أنه يصعب أن نجد عنصراً زخرفياً في الفن الإسلامي لا يرجع في أصوله إلى فنون الحضارات القديمة سواء كانت المصرية أو العراقية أو الإيرانية... إلخ، وأنه لا غضاضة في أن يكون لكل عنصر منها دلالات رمزية عقائدية ترتبط في أذهان مستخدمي تلك العناصر، وأنه من المستحيل إخضاع المفهوم الرمزي لتلك العناصر المستخدمة لدى شعوب لها رموزها العقائدية الخاصة، لمفهومها لدى شعوب أخرى تختلف عنها من ناحية العقيدة، ومن ناحية الموروثات الاجتماعية.

وإذا كانت الفنون المسيحية مشبعة بكثير من العناصر الرامزة التي ترتبط بالعقيدة المسيحية كرسوم الأسماك والحمام والطواويس والأسود وغيرها، فإن هذا لا يعطينا الحق في أنه كلما ظهر منها عنصرٌ في الفن الإسلامي وبخاصة في مصر أن يتبادر إلى أذهاننا أنها ترتبط بالعقيدة المسيحية والفن القبطي كما يذهب إلى ذلك بعض مؤرخي وباحثي الفنون الإسلامية.

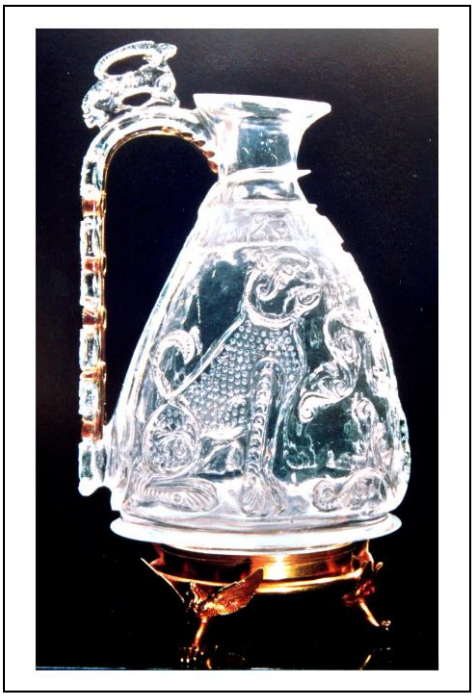

(لوحة 1)

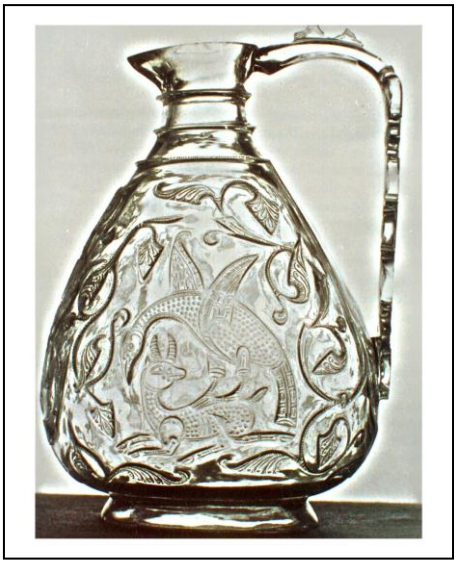

(لوحة 2)

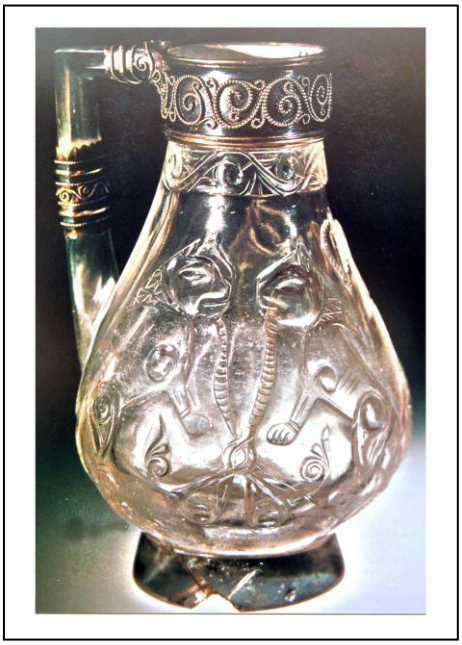

(لوحة 3)

(لوحة 4)

(لوحة 5)